

في الأدب المقارن

## الرومانسية والكلاسيكية

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ نغرى أبو السعود

ينشأ أدب الأمة المتبدية ساذجا بسيطاً صريح التعبير قريب المتناول، مطلق السجية و الإعراب عن الشعور الإنساني، وأنظله هذه السمة حيناً، حتى تتحضر الأمة وينتقل الأدب من جو الطبيعة الطلق إلى حياة المدينة، بما تشمل من وسائل الحضارة المادية وأسباب الثقافة الذهنية، فيرتقي الأدب لذلك كله وتتسع جوانبه وتبعد أغراضه، يد أن الحضارة المادية التي توفرها المدينة لا كنيهاً ولا توفرها الطبيعة للتبدن، ربما طغت فأفسدت على القوم حياتهم؛ وكذلك الثقافة العقلية التي في ظلها يرتقي الأدب رقياً عظيماً ربما زيفت على الإنسان شعوره، وتعاونت مع تلك الحضارة المادية على إفساد الأدب بتغليب الصنعة والتكلف فيه على الإحساس الصادق، وتكيله بالتقاليد والأوضاع، وتضييق حدوده وسد آفاقه، وإيلاء الألفاظ فيه المكانة الأولى دون المعاني

إذا بلغ الأدب هذا الطور الصناعي التقليدي انحط ولم يعد يسير إلا من تدهور إلى تدهور، وصار الأدب المتبدى على سذاجته أرق منه وأصدق، ولم يعد للأدب الذي غلبت عليه الصناعة من سيل للنهوض، إلا الرجوع إلى الطبيعة والاقتراس من الأدب البدوي المرسل الطبع، والاطلاع على آداب الأمم الأخرى التي لم يرهقها التكلف ولم تفسدها الصنعة، بهذا وحده يتأتى له معاودة الحياة وأن يعود ترجحاً صادقاً ميناها، وبغير تلك العوامل الخارجية هيئات أن ينهض الأدب العاثر من سقطته، وإنما يزداد إمعاناً في التكلف السمج جيلاً بعد جيل، وإغراقاً في اختراع كاذب الأخيلة والأحاسيس ومزجها بالأغبياء الألفاظ، والخروج بكل ذلك عن كل ما يبيغ ذوق أو يقبله عقل

لحياة الطبيعة المطلقة في أعتابها، وحياة المدينة ذات الحضارة والثقافة، تتنازعان الأدب وتؤثر كل منهما فيه تأثيراً خاصاً، ولكل منهما مزايا هي قادرة على إبداعها الأدب: تمنحه الطبيعة شتى مناظر جمالها وصدق شعورها وبعد آفاقها ورائع أسرارها ومخاوفها،

ودل على اتصال الممثل بالمتنوع؛ فإن الظواهر أجسام، والبواطن أشباحها، والبواطن أنفس، والظواهر أرواحها... (١)

وفي هذه العبارات ما يليق الضياء على غايات السياسة الفاطمية الدينية والمعنوية وعلى وسائلها في غزو الأذهان وحشدها من حولها؛ ومن المعروف أن الخلافة الفاطمية كانت تتخذ الإمامة الدينية شعارها، ومرجع زعامتها الدينية في العالم الإسلامي، وشرعية ملكها السياسي، والدعوة الفاطمية التي كانت تاتي في مجالس الحكمة إلى الكافة وإلى الخاصة متدرجة في مراتب من السرية والتحفظ طبقاً لمكانة الأشخاص وأحوالهم الفكرية والاجتماعية، كانت رغم صفتها الدينية، ترى في النهاية إلى أغراض سياسية؛ ذلك أن الخلافة الفاطمية كانت ترى أن تحشد جمهور أوليائها ومؤيديها عن طريق الدين، ومتى اجتمعوا في ظل الإمامة وتحت لوائها، استطاعت أن تحررهم وأن توجههم وفق مصالحها وغاياتها، وإن تعتمد على تأييدهم ونصرتهم كلما اقتضت الظروف والأحوال والدول الحديثة التي تعتمد في عصرنا على سلاح الدعاية ترمي

إلى مثل هذه الغاية؛ فهي تتوسل بما لديها من أسلحة حديثة لغزو العقول والأذهان كالصحافة والراديو والسينما وغيرها لفرض مذهبها السياسية والاجتماعية والدينية أحياناً على جمهور الشعب والحصول على تأييده ونصرته. ولم تكن الخلافة الفاطمية، وهي من دول العصور الوسطى، تتمتع بشيء من هذه الوسائل القوية الحديثة، ولكنها مع ذلك استطاعت أن تنظم دعوتها بأساليب ووسائل مدهشة، وأن تجني كثيراً من الثمرات المادية والمعنوية، بل لقد كان قيام الدولة الفاطمية ذاته نتيجة من نتائج الدعوة الفاطمية. وذيرع هذه الدعوة في قبائل إفريقية البربرية هو الذي جمع كلمة القبائل حول عبيد الله المهدي، وهو الذي مهد لقيام الدولة الجديدة والخلافة أن فكرة الدعاية التي تتبوأ في النظم السياسية والاجتماعية الحديثة، ولا سيما نظم الطغيان الفاشستية، مكانة خاصة، وتعتبر من أقوى أسلحة الطغيان في عصرنا، ليست جديدة في ذاتها أو غاياتها، وإن كانت جديدة في وسائلها، وقد عرقها الدول الإسلامية قبل ألف عام، واتخذت على يد الخلافة الفاطمية أذكي وأبرع وانفذ أساليبها

محمد عبد الله عثمان

وتمنحه المدينة وسائل التفكير العميق والنظر الثاقب والطموح إلى المثل العليا، وأسباب الإنشاء الأدبي الفنى والجهد الأدبي المتصل، والتفنن في ابتكار صور الأدب وأوضاعه، والخير كل الخير أن يأخذ الأدب من كلتا الناحيتين بنصيب، والأدب الذى اجتمع له رجب الطبيعة وحرارة شعورها وجمالها، إلى ثقافة المدينة ووسائل التوفر الأدبي فيها، أدب لاشك بالغ من الرقى غاياته؛ أما الأدب المتبدى فيظل على صدقه وجماله قاصرا ساذجا، وأما أدب المدينة الذى بالغ في الانهيار في جوها وأهمل جانب الطبيعة، فسائر إلى الفساد والاضلال لا محالة

والرومانية هي الصفة التي ينعت بها عادة الأدب الذى يؤثر جانب الطبيعة، ويحفل بمظاهر عبادتها والتأمل في ظواهرها ووصف مشاهدتها والسيح في آفاقها، يؤثر كل ذلك على الانظر فلا يهتم بهذا إلا بقدر ما يستخرجه في إيضاح أغراضه، وعلى حياة المدينة فلا تستغرق شؤون السياسة وعلاقة رجله برجالها ورجال البلاط والحرب كل جهده والتعب، ولا يصرفه الحاضر عن الولوج بالماضى والتأمل فيه وفي المستقبل، ولا ريب أن ذلك لا يعنى إهماله لجانب الحضارة والثقافة، بل هو بهما شديد الولوج ويدرس ماضيهما ومستقبلهما شديد التدقق؛ والكلاسيكية هي النعت الذى يطلق على الأدب الذى استغرقه حياة المدينة وشغلها عن جانب الطبيعة وانغمس فيها رجاله، في مجتمعا ومتدياتها ماركها السياسية والحزبية والشخصية، وآثر التأنق في اللفظ والشكل الأدبي وكشف العاطفة لخل محليا، لذلك والبراعة والمباقة، وضيق مجالات القول وحدد أغراضه، وكل هاتيك صفات ولوازم تعلق بالجمع المنرف وتعكس عنه في الأدب

وقد كانت الصفة الرومانية هي الغالبة على الأدب الإغريقي في عهد عظمته، لأنه ترعرع في مجتمع قريب من البداوة، وفي حياة شديدة النشاط مطردة الحركة، تجش بالمغامرة والجلاد، وفي حرية في الفكر والسياسة. أما الأدب اللاتيني فكان أكثر اضطباغا بالكلاسيكية لأنه لم يبلغ ذروته إلا في ظل الملكية المطلقة والامبراطورية الموطدة المستقرة. فكان أدب مدينة وثقافة متأقفة، واشتهر أعلامه كفيرجيل بأحكام الأسلوب والنسب بمبادئ وتقاليده أدبية خاصة، وما زالت إلياذة هوميرو وإنياد فريجيل موضوع نقابة من هذه الناحية. وكان أدباء الإنجليزية أكثر احتعالا باللاتينيير واقتداء بهم في العصر الكلاسي في الأدب الإنجليزي، كما كانوا في عهده الرومانى أميل إلى اليونان وأكثر تغنيا بآثارهم، وبمقدم اضلاع الأدب العربى على الأدب اليونانى فقد هذا العنصر الرومانى الذى أصبح في

حاجة إليه، حين انتقل إلى المدينة وشغل بآثار الحضارة والثقافة وقد كانت الرومانية هي الصفة الغالبة على الأدب الإنجليزي في العصر الإلزابيثي؛ ففي ذلك العهد كانت البساطة والخشونة لسودان المجتمع والبلاط؛ والحركة والنشاط والتطلع تتجلى في شتى نواحي الحياة؛ في العلم والأدب والكشف والمخاطرة والحرب. كان عهد نهضة تحفز وتستشرف إلى الجديد وترى إلى التوسع، لا تقنع بالقليل الحاضر ولا تقبل القيود والحدود؛ وزمن شباب يولع بالقوة والجلاد ويرم بالآتيار والاقيد، فهو لا يرضاه في الأدب؛ ومن ثم جاء أدب ذلك العصر غزير المسادة متلاطم العباب مترامى الآفاق. جيشا بشى العواطف والمعاني، حافلا بمختلف الأوضاع الأدبية والمذاهب الفنية، لم يتقيد رجاله تقاليد فنية غير معقولة؛ فعلى حين تقيد أدباء الفرنسية بالوحدات الثلاث التي أثرت عن الدراما الإغريقية، انتفع الأدب الإنجليزي بخير ما في تلك الدراما وضرب بتلك الوحدات عرض الحائط؛ ولم يتقيد بالفاظ خاصة في الشعر، مما أصبح فيها بعد بسى والالفاظ الشعرية، بل زاد على استعمال كل ما في لغة الكتب أن اقتبس من لغة العامة واصطنع بعض ألفاظ اللغات الأجنبية، واشتق ماراقه من ألفاظ. وأخرج هذا العصر الحافل كبير شعراء الإنجليزية شكبير، وأجيب بجمته أحد كبراء شعرائها سبنسر، وامتد هذا العصر حتى انتهى بظهور علم ثالث من أعلامها هو ملتون

تصرم ذلك العهد المملوء بالحرية والنشاط والجرأة والفتوة، وتلاه عصر كلاسي طويل، بين أواخر القرن السابع عشر وأواخر القرن الذى يليه، خدث فيه روح المغامرة والتطلع التي كانت متنبية في عصر اليزابث، واستراح الناس إلى حياة المدينة ومتدياتها، وانغمس الأدباء في المعارك لادبية فيما بينهم، فكان نزاع بين كل من دريدن وأديسون وستيل وديفو وسويقت ومعاصريهم، محتدم حيناً ومترفق حيناً، ومعلن تارة ومستر أخرى؛ وانغمسوا كذلك في المشادات السياسية وانضوا تحت ألوية الأحزاب، وشجعهم رجال تلك الأحزاب على الانخراط في سلكهم والنزود عن مبادئهم بأقلامهم، فكان سويقت في صف المحافظين، وأديسون في جانب الأحرار، وكان ستيل يختلف من هؤلاء إلى أولئك. وخلا أدب ذلك العصر أو كاد من ذكر الطبيعة ومجاليها، وحتى أولئك الأدباء الذين كانوا يرحلون إلى الأقطار الأجنبية، لم تكن تحرك نفوسهم مناظرها الجديدة، فكانوا يتناولون في رسائلهم إلى أصدقائهم في الوطن شتى

والعهد الراشدي وصدر العصر الأموي : في تلك العهود وكان المجتمع العربي أدنى إلى البساطة والتبدي ، وكان الأدب مرسل السجة صادق التعبير عن خبايا النفوس : من حزن وطرب ولذة وألم ، وحب وبغض وحاسة ووصف ، خالياً في أكثر نواحيه من مظاهر التكلف اللفظي أو العمل في المعنى أو التصنع في الموضوع . وما تزال لحكم بعض الأعراب والأعرافيات ومرائهم ، وحاسيات قطري بن الفجاءة وغزليات جميل وقيس ، روعة في النفوس وغبطة شاملة ، لصدورها عن طبع سليم وشعور صميم ؛ هذا على رغم بساطة ذلك الأدب وخلوه من مظاهر الثقف والتعمق في التفكير

تجرم ذلك العصر بطول عهد العرب بالحضارة والثقافة ، ومهدت حضارة المدينة وثقافتها من أسباب القول ودواعي النظم ووسائل الفن الأدبي ما لم يتوفر في البادية ، فنشأ من ذلك أدب جديد يفوق أدب العصر السالف تعدد مواضع وعمق نظرة ووفرة محمول ، وتحلى ذلك في خير آثار ابن الرومي والطائي والمتنبي والمعري ، والمجاهظ والديبع والجرجاني وأضرابهم . على أن الأدب في طوره هذا انغمس في جر المدينة انغماساً تاماً ، فكان هذا عهداً كلاسيكياً صليماً : فيه تزايد ولوع الأدباء تدريجاً باللفظ . واحتفاؤهم به ، ثم استبعادهم أنفسهم له وللأوضاع والمبادئ الموروثة عن المتقدمين . وضائق مواضع القول رويداً رويداً وكلها التكلف والأغراب ، وتجمع الأدباء حول موائد الأمراء ورجال السياسة والحكم والحرب ، وخاضوا غمار مشاغلهم ، وتشاخواهم أنفسهم فيما بينهم ، وهي مشاغل تذكركنا بمحملات سوفيت ودريدن على الوزراء والقواد في عصرهما ، وحملاتهما على غيرهما من الأدباء ، فنجاه الوزراء قول دجيل في وزير المأمون :

أولى الأمور بضاعة وفساد أمر يدبره أبو عباد

يسطو على جلالة بدواته فضمخ بدم ونضح مداد

ومن تهاجى الشعراء قول ابن الرومي في البحتري :

أف لأشياء يأتي البحتري بها من شعره الفث بعد الكد والتعب

البحترى ذنوب الوجه نعرفه وما عهدنا ذنوب الوجه ذا أدب

وقول المتنبي في معاصريه :

أفي كل يوم تحت ضيبي شوبير ضعيف يقاويني ، قصير بطاول ؟

وكم جاهل بي وهو يجمل جهله ويجمل على أنه بي جاهل

في ذلك العصر الكلاسي الطويل أعرض الشعراء إعراضاً يكاد

يكون تاماً عن الطبيعة وحديثها ومجاليها ، وأقبلوا على حياة المدينة

أى إقبال . وما منهم من لم يعمل أبعد من أن ينال النجاح فيما تهيئه

المواضيع ماعداها . واهتم أدباء ذلك العهد باللفظ كل اهتمام وقدموه صراحة على المعنى ، وجعلوا للشعر ألفاظاً لا يتعداها ومواضيع لا يتخطاها ، واتخذوا للشعر وزناً واحداً مزدوج القافية لم يكده أحد ينظم في سواه ، وقلدوا المتقدمين من أدباء الإغريقية واللاتينية وتقادهما ، وانصاعوا لمبادئهم انصياعاً أعمى ؛ وبهذا كله ضاقت حدود الأدب ضيقاً شديداً ، وأرهمقه التكلف وفدحته القيود ، فسار إلى الانحلال

وزعيم هذا المذهب الكلاسي الذي بلغ أوجه على يديه هو بوب الذي نال الغاية من إحكام اللفظ ، وقد قال عنه بعض مترجيه إن شعره ليس إلا نثرًا جيد النظم ، وذلك حق : فهو يتناول في شعره مواضيع هي أقرب إلى النثر وأبعد عن الخيال والشاعرية ؛ وكان يسمى بعض قصائده ، مقالات ، ومنها مقالته في النقد التي نظم فيها مبادئ المذهب الكلاسي في الأدب ونقده ، فقلت مرجعاً لمن تلاه من شعراء المذهب ، ومنها يقول : « تعلم إذن التقدير الحق لمبادئ المتقدمين ، فحكايتها هي محاكاة للطبيعة ، فذلك المبادئ القديمة — التي إنما اكتشفت ولم تخترع — إن هي إلا الطبيعة ؛ غير أنها الطبيعة منضمة ، مهذبة ، » . وقد ترجم بوب إلياذة هو ميروس ترجمة قدسها معاصروه ، ولكنها قلنا تذكر لأن آر يعتمد عليها أو تعد ضرورة صحيحة لشعر هو ميروس ، إذ كان من المستحيل على أديب مشع بالروح الكلاسي أن يخلص إلى روح الشاعر الإغريقي الرومانسي ؛ ثم دبت في المجتمع الإنجليزي روح جديدة ، وانتدش الأدب الإنجليزي من نموه باطلاعه على آداب الأمم الأخرى الناهضة كالآداب الألمانية ، والعودة إلى صدر الطبيعة الرحب الحافل بالأسرار والحياة والوحى .

تمخض كل ذلك في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل الذي يليه عن نهضة رومانسية جديدة فككت الأدب من عقالة ونهبت الشعر من غفوته ، ورحبت آفاقه وبسطت جوانبه ، وسبغت به في آراء الكون والطبيعة والانسانية ، وأنجبت هذه النهضة جمهرة أخرى من أقداد الأدب الإنجليزي : أنجبت وردزورث وبليل وكولردج ، ثم بيرن وشلي وكيتس ، ثم تينيسوت وبراوننج ، عدا من أخرجت من أقداد النثر الذين جاء نثرهم حافلاً بمظاهر النهضة الجديدة ؛ ولا غرو : ففي العهود الرومانسية يتجلى نزع الشعرى حتى في النثر ، وفي العصور الكلاسيكية يفيض الروح الشعرى حتى في النظم ؛ وما تزال تلك النزعة الرومانسية ملحوظة في الأدب الإنجليزي ، على ما داخله من نزعة واقعية ، وإقبال على درس مسائل المجتمع كافة

والعصر الرومانسي في الأدب العربي هو ولا شك عصر الجاهلية

لأنها من أسباب اللذة والمنفعة والشهرة، فكان منهم طامع إلى الملك كالنفي والشريف الرضي، وحريص على الوزارة كالصاحب وابن العميد، وراغب في الولاية حظي بها كالطائي وقصر عنها كابن الرومي، ومقتبط بالحظرة والمناذمة كأبي العتاهية والبحترى، وغير هؤلاء وأولئك ممن سعوا سعيهم ولم يبالوا مثل شهتهم؛ وعن طمحوا فيما هو دون ذلك من متعات الحياة. ونظير ذلك كله تراه في العصر الكلاسي الإنجليزي سالف الذكر: فقد تقلب دريدن بين الأحزاب وحرص على الحظوة في البلاط، وتدرج أدبسون في المناصب حتى صار وزيراً للخارجية، ولم يفتح سويقت بما تولى من مناصب في الكنيسة، وكان إخفاقه في مطامعه البعيدة أحد أسباب نكته وتشاومه وتجلت هذه الصفة الكلاسيكية في الأدب ذاته: حددت مواضعه وقصرت على ما اتصل بالحاضر القريب من شؤون الحياة في المدينة، وأهملت المواضيع الرومانسية الصعبة، كالآلقات إلى الماضي واستعراض حوادثه الطريفة واتخاذها مادة للنظم والنثر، ومعالجة خرافاته واستلهاها ما بها من معاني الجمال والعظمة والبطولة، وأهملت أحاديث الرحلات وأرصاف البلاد البعيدة والأصقاع المجهولة، ما وجد منها في الحقيقة وما يتخيله الشاعر، وكفكف الخيال ونبت آثاره من عالم الأدب.

خلا الأدب العربي في ذلك العهد من كل هذه المواضيع، وهي من صميم الشعر ولباب الفن وجوهر الأدب إذا ما تحضر أهلوه وانتفخوا بالثقافة، وإنما تركت هذه المواضيع الجليلة للأدب العامي، فظل الأدب الفصح أدباً كلاسياً وصار الأدب العامي هو الممثل للرومانسية دام ذلك العصر الكلاسي الطويل في الأدب العربي طوال عهد ارتقاء الأدب، أي زهاء ثلاثة قرون، ثم طوال عهد انحطاطه أي إلى العصر الحديث، لم تعقبه خلال تلك الأجيال المتوالية نهضة رومانسية تخفف من غلوائه وتصلح من فساد، وتقيم ما عرج من مبادئه الأدبية، وتعود به إلى الطبيعة التي هجرها واستغرق في النوم في أحضان المدينة: لم تنبعث فيه تلك النهضة التي انبعثت في الأدب الإنجليزي في أعقاب القرن الثامن عشر، حين بلغ العهد الكلاسي مداه من التحكم في أساليب الأدب. وبلغ الأدب الدرك من الاسفاف والاحمال؛ ذلك لأن الأدب العربي كانت تموزة تلك العوامل التي تساعد على النهضة وتعاون على الرجوع إلى الطبيعة وتنبث الميل الرومانسي، فكان استمرار النزعة الكلاسيكية المحترمة في الأدب أكبر أسباب تدهوره الطويل.

فالأدب العربي لم يكن على اتصال بآداب أجنبية يأخذ عنها حب الطبيعة وإثارة البساطة، وبلغت باطلاعه عليها إلى حقائق الحياة

الكثيرة التي أهلها، وهو لم يكن يتنازل فيتصل بآداب العامة وأقاصيص الزراع والرعاة، التي تنسم فيها نفاثم الطبيعة والبساطة والشعور الصميم، وهو لم يكن يرجع إلى ماضيه الرومانسي الذي سقت الإشارة إليه، فينظر فيه نظرة حرة مميزة، تستخلص اللباب وتنظر من خلاله إلى حقائق الحياة، إنما يرجع إليه طلباً للأسلوب واللفظ، دون المعنى والموضوع، كان بعده كنز لغة فصيحة الأساليب والآلغاز لا كنز حقائق منتزعة من الحياة الصميمة. فإذا نظر إلى المعاني حاول حكايته وتقليدها تقليداً كاملاً على ما هي عليه، أي حاول الأديب أن يحيا في أدبه حياة البدو ويشعرهم بشعورهم كله، وكان الأجدر أن ينبذ ذلك جميعاً، ولا يهتم إلا بصدق تعبير أولئك المتقدمين عن شعورهم، ووجوب صدقه في تعبيره عن شعوره الصحيح، في عصره وحياته المخالفين لما كان قبله.

ظل هذا المذهب الكلاسي التقليدي سائداً في الأدب العربي، يقلد المتأخر المتقدم ويزيد عليه تقييداً وتضييقاً في مجالات القول وأوضاعه، مادام الأدب محجوباً عن غيره من الآداب بعيداً عما يحمله أو تجاهله من حقائق الحياة والأدب، حتى أتيح له الاتصال بالآداب الغربية في العصر الحديث، فصحا من غفوته ونفض عنه تدريجاً غبار التقليد والتقييد اللفظي والمعنوي، وفتح بحقائق الكون ومحاسن الطبيعة التي كانت عنها في شغل، وتناولت المواضيع التي كان حرماً عليها على نفسه، وبالجمل تقشع عنه عصره الكلاسي الطويل، وأشرق عليه فجر نهضة رومانسية جديدة.

فتمزج أجناس السعور

### رسالة

#### في بلاد العريضة السعيدة

تأليف: نزيه مؤيد العظم بك

وصف مسهب لبلاد اليمن وسبأ ومأرب ونصوص المعاهدات التي عقدتها الدول مع اليمن يقع في ٤٠٠ صفحة من الققطع الكبير مزدان بالصور وهو الكتاب العربي الوحيد في بابه ويطلب من: —

مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه

بجوار سيدنا الحسين بمصر

ثمن النسخة ٣٠ قرشاً عدا أجرة البريد